[286] لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلا هذا الشيخ الجالس - وأشار إلى جعفر بن محمد - فقام ابن أبى العوجاء إلى الشيخ. وتحدث معه ثم رجع إلى صاحبه وقال: ما هذا ببشر. إن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهرا، أو يتروح إذا شاء باطنا، فهو هذا.. ظل يحصى لى قدرة ا التى في نفسي. والتى لم أستطع رفضها، حتى ظننت أن ا قد نزل بينى وبينه. ونزول ا بين الإمام وبين ملحد، باعتراف الملحد، آية باقتدار المنهج على بلوغ غرضه، وقدرة مجادل جمع الآيات الربانية حججا بين يدى منكر أخذته حجة الأمر الواقع فأبلس. فإذا تصدى الإمام لأصحاب الأغلوطات أزرى بالسفسطات. وبدههم. - كدأبه - " بالواقع ". فبهتتهم - كأن لم يشهدوها قبل - حقائق الأمر الواقع. طلب واحد من تلاميذه بيانا عن قول أبى شاكر الديصانى - رئيس الطائفة الديصانية - وهى طائفة ملحدة تنعم بحرية العقيدة في بلدان الإسلام - إن في القرآن ما يدل على أن الإله ليس واحدا. ففيه (وهو الذى في السماء إله وفي الأرض إله) فأجاب الإمام بقوله: قل له ما اسمك في الكوفة فيقول فلان. فقل له ما اسمك في البصرة فيقول فلان. فقل له فكذلك: ربنا في السماء إله وفي الأرض إله وفي البحار إله وفي كل مكان إله. * * * وفي كتاب الإهليلجة المروى عن طريق المفضل بن عمر يستعمل الجدل العلمي، في تنبيه الشكاك على أنهم في بداية الطريق نحو المعرفة يقول (.. أخبرني هل رقيت إلى الجهات كلها وبلغت منتهاها ؟.. فهل رقيت إلى السماء التى ترى أو انحدرت إلى الأرض السفلى فجلت في أقطارها.. فما يدريك لعل الذى أنكره قلبك هو بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحط به علمك.. أما إذ خرجت من الإنكار إلى منزلة الشك فإنى أرجو أن تخرج إلى المعرفة). فلنلاحظ أنه يجادل الرجل بأن يرتفع من الإدراك المادى إلى حيث يفكر. وأنه يرفع المفكر إلى حيث يستيقن. فيطالب الشاك بمزيد من التجربة المحسوبة الملموسة. ليصل من الشك إلى المعرفة. وهى مراحل العلم الذى يصل إليه الناس بوسائل مأمونة ومجربة.
